الإسلام دين الفطرة

بقلم حضرة العلامة المفضال الشيخ

عبد العزيز شاويش

استاذ العلوم العربية في كلية اكسفورد الانكليزية

من عمله في مؤتمر المستشرقين الجزائري

سنة ١٩٠٥

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

زارني ذات يوم وأنا في اكسفورد من بلاد الانكليز لفيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث في أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الاخلاق والعادات والاحوال التي تباين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا الآن حتى أفضى بنا المقام الى الكلام في الاسلام فوجدت من خلال حديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى سوى انه دين الارتفاق والطلاق وتعدد الزوجات وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم وما زادوني فيهم بصيرة فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف

فأخذت اذ ذاك أبين لأولئك الافاضل أصول الدين الاسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم من غير أن يستهوي نفوسهم تعصب ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التي

مثلت لهم الاسلام في أبشع صورة وأقبحها ولم يكد ينتهى بنا الحديث حتى انطلق أحدهم قائلا «يخيل لى أيها الشيخ ان هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شىء» (Natural religion) فأجبته اذ ذاك - وقد تذكرت قوله عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه) نعم وكذلك سماه النبي عليه السلام وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف ثم عنّ لى بعد ذلك أن أضع عجالة فى بيان معنى كون الاسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل وجدتها أحسن فرصة أتشرف فيها بعرض ماعنّ لى بين أيدى أعضائه الاماثل لعلى أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتى المزجاة فاقول والله المستعان

الحديث

روى البخارى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مامن مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) وقد اختلف المفسرون كعادتهم فى المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قددا

والذى يفهم من تعقيب ذلك فى الحديث بقوله عليه السلام فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه الخ أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذى يصيب الشاة بعد ان تولد على الفطرة سليمة لاعيب فيها

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الاسلامى من عدم تكليف القاصرين والاّ يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ولو أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس مسلمين ناجين حتى يكلفوا فالدين الفطرى لكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه فان الاطفال فى ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهوَّد ولا منصَّر لما اختار بفطرته الا الاسلام فانه لايمكن توضيح ذلك الا بالبحث فى بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التى يرمى اليها الشارع في تكاليفه فنقول

(٢)

(الفطرة والتوحيد)

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره لايمكن أن يشابه الممكنات في شيء من صفاتها فليس بجسم ولا عرَض ولا محدود ولا متحيز لايستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال « البعرة تدل على البعير

وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات ابراج . وأرض ذات فجاج كيف لاتدلان على اللطيف الخبير » فجاء الاسلام مصدقا لما افتنته الفطرة السليمة ولم يزد في الاستدلال شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجد ذلك في أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لوكان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا فى تصوير آلهتهم فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لاتكاد تجد تشابها بين آلهتهم فسنحقق لك بعدُ أن هذا مباين لمقتضى الفطرة اذ منشأ ذلك أن الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ماليس له فى ذهنه صورة ولاحدود محصورة (فمن) ذلك ماقصه الله فى شأن معاندى أهل الكتاب حيث قال (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقدسألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات)

ومن البديهى ان الشىء لايصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعى عدم وجوده أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهانا ينفى به وجود الشىء وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم فى هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة أفلا تدبرت قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافي السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم)

لقد جمعتنى المصادفات برجل مسلم من الانجليز لم يرج من اسلامه شيأ من حطام الدنيا ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب السياسية فقال لى ان في القرآن الكريم آية لاأمل من تكرارها ولامن ترديد النظر فيها جاءت في وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الاديان الاخرى على ذكائهم وسعة اطلاعهم أن يأتوا به ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى .فبأيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل

هذا وتمميما لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكلمات عثرت عليها (١) للورد ماكولى الكاتب الشهير الانكليزى اذ قال ماترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء مالا يمكن للعقل أن يحيط

(1) See the Essay on Milton).

به بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم اما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت كما يظهر الاديان الوثنية فى كل أمة فى كل جيل فى كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ماصوره خيال معتقديها

ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما فى دينهم من البدع متمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها جيبون وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الأثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف الارض الا لانها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التى كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة فان الها لم يخلق وكائنا لا تدركه الابصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون أما الاخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن أن تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم فكانوا يتأففون ويهزؤن ويضحكون من أولئك الفلاسفة راميهم بالبله أو قصور الذهن

طاشت النفوس فى الازمنة القديمة وضلت الصراط السوى وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس

ويدعوهم الى ماجاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى أن يصيبهم في ايمانهم مثل ماأصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم فتمثل الاله لهم فى صورة آدمىّ مشى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا (Cecilia) وغيرهما آلهة الجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى (The Muses) الهات لدى اليونان وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون مالصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا

نجد العامة الى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له من الخزعبلات ويتهافتون على تلقف سير بعض من لاقيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات اكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الاساسية » انتهى ببعض تصرف

هذا ماقاله اللورد ماكولى فى شأن الدين الذى يعتنقه ويذعن له وفى الامم التى شاركته في الاخذ به وبيان أحوالهم فنذكرت هنا

والحديث شجون ما أصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم . أفرأيت الذين يذهبون الى الاضرحة فيمفرون وجوههم ترابها ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر على اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لايملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً . أاله مع الله . أمر أن لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون) والخلاصة ان السبيل التى جاء بها الشرع الاسلامى فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الاباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)

« النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها »

ظهر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية دينها الوثنية ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ووسائل ارتزاقها السلب والنهب فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشىء من المعجزات الخارقة للمادة فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل اذ لاعلاقة

عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ولقد نقل عن ابن رشد أن الآيات الاقتراحية لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذا جاءت منفردة لانها ليست من أفعال الصفة التى سمى بها النبي نبياً أو الرسول رسولا ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجع بالقوم الى ماهو من حدوده والى تدبر ماجاء به القرآن الكريم من الهداية فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه قال تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ولطالما تنصل النبي صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب وأرشدهم الى ماقصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائداً فيهم من الضلال المبين قال تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان أتبع الا مايوحى الىّ قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وجاء في سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا)

كم حذّر النبي صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات

وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها فمن ذلك قوله تعالى (وما نرسل بالآيات الا تخويفا) وقال (قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ماتستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

لم يكن طلب المعجزات من النبي عليه السلام ناشئا عن تروّ من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على أن لا يقبلوا شيأ الا ببرهان ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثا أو عناداً أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها فكان النبي عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية ويطلب مالا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) أراد الله الحكيم أن يبين للناس ان تلك الآيات التى يطلبونها لا تصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه اذ مثلها في ذلك مثل من ادعى ان ٢ + ٢ = ٥ وبرهن على ذلك بابرائه مريضا من داء عضال فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات

مالا يستطيع أن يحمل أحداً على اعتقاد دعواه التى أتى بها ومن هنا كان الاقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون مايأتى به أنبياؤهم من المعجزات فقائل انها سحر وقائل انها من أعمال الجن المسخرة لهم حتى اذا ضاقت عليهم الاسباب لجؤا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود والانكار كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد ان تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم مايصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاؤا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم كما فعل أسلافهم وناله من عنتهم ولجاجهم فى طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه أن يستعجل بهم السوء ولو كانت الخوارق في يد النبى صلى الله عليه وسلم وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم وافحامه لما قعد بالنبى عليه السلام أمر عن الاتيان بها ولكنها كلمات الله التى لامبدل لها وسنته التى لاتتغير (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا في الارض أوسلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلاتكونن من الجاهلين)

والخلاصة اننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن فى أرباب العقول بالتدبر

وأن لا يشطوا فى مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى مايريدون من الغايات. ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الابدية التى جاء بها ذلك النبي الامى عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدى به الله من اتبع رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم. فمن ذلك قوله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

نزل القرآن الكريم ليؤدى ماقصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة وما زال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه فاستعملوا آيات القرآن فى غير ماوضعت له فاتخذوها للتطبب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق وليتهم وقفوا عند ذلك الحد بل تراهم تطرفوا واجترؤا على القرآن ومنزله فأولوا القرآن طبقا لاهوائهم وأخرجوا كثيراً من آياته عن معانيها التى تقتضيها لغته وأسلوبه وسياقه . أما رأيتهم كيف يفهون قوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (شفاء لما فى الصدور) وقوله (لهم مايشاؤن عند ربهم) وقوله (حتى اذا

بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما) وقوله (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقوله (ألم نجعل الارض مهادا والجبال أوتادا) الى نحو ذلك من الآيات وان شئت ان تعرف ما أتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئاً مما كتبوه فنقول

(١) جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج أنه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى أسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت اه

(٢) وجاء فى كثير من التفاسير فى تأويل قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) ـ فى سورة لرعد ـ ان الضمير فى له عائد الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد وذلك ان ملائكة الليل اذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل ورووا فى ذلك

حديثاً عن كنانة العدوى قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال أخبرني عن العبد كم معه من ملك قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذى على الشمال ..... وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك واذ تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام وملك على فيك لا يدع الحية تدخل الى فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وابليس بالنهار وولده بالليل اه ولا يخفى ان هذا الحديث مكذوب على حضرة النبي على انه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به مع ان سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجوه فان سياق الآية كان في التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات وعلى عظمته وتعاليه المتناهى الذى يغلب معه كل مغالب ولا يقى الانسان دونه أى حافظ اذ قال (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا وجلاوزة سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان مايقضى به الله على عباده . ثم بينت الآية

ان سنة الله فى خلقه ربط الاسباب بمسبباتها فخفاء الاسباب أو كتمانها لايحول دون تحقق نتائجها فان الله الذى جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الامور محيط بما تجنه الضمائر فلا يغير الله مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما ليقيه شر الحوادث هـذا مايفهم من الآية وسياقها فعجبا لأولئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان الضمير في توله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى وهذا لأثر له أصلا فى الآية هذا فضلا عما عملوه من تفكيك نظام الآية اذ قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الاجزاء التى تتألف منها

(٣) ومن ذلك ماقاله بعضهم فى تأويل قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) . بسورة القدر ـ حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والارضين السبع كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل وجه ألف فم .... الى آخر السلسلة المعروفة فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك أيضاً ماأتى به كثير من المفسرين في تأويل قوله تعالى(يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) اختلف أهل التأويل

فى ذلك فقال بعضهم يمحو الله مايشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لايغيران وزاد بعضهم الحياة والموت ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر وقال بعضهم انه فى ليلة النصف من شعبان وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره أحد غيره يمحو مايشاء ويثبت مايشاء وقال أيضاً ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الاولى منهن ينظر فى الكتاب الذى لاينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت مايشاء واذا شئت أن تستقصى ماقالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم هذا * ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا فنقول قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الاية بتمامها ليتجلى لك معناها .

قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) انقسم أهل الكتاب على النبى عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) وكذلك كانوا كلما سألوا

المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لايجيبهم الى شيء من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزاً لاينبغي له أن يدعي النبوة فرد الله على أولئك القوم وبين لهم أن تلك الاشياء لاتنافي الرسالة في شيء فقال ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كادم وابراهيم وموسى وداود وجعلنا لهم أزواجا وذرية كما بين أن التصرف في الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا لله تعالى فقال وماكان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله الذي هو خالق كل شيء فهو الذي يمحو مايشاء محوه ويثبت مايشاء اثباته طبقا لما سبق في علمه القديم كما يدل عليه قوله تعالى وعنده أم الكتاب اذ معنى أم الكتاب أصله وأصله هو العلم القديم الذي لاتتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقا له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب الا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ماسبق في علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضي الى القول بأن علم الله القديم بنقاب جهلا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه « اللهم ان كنت كتبتني عندك

أم الكتاب شقياً أو محروما أو مطروداً أو مقتراً علىّ فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتى وحرمانى الخ» فان معنى ذلك ان الداعى يسأل الله أن يغير ماسبق فى علمه أزلا الى ماهو من مشتهيات نفس الداعى وان انقلب علم الله بذلك جهلا

عاش النبي صلى الله عليه وسلم ماعاش ثم مضى السلف الصالح من بعده فما سمع أن أحداً منهم فهم من القرآن الا مايدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين. ثم خلف من بعدهم خلف افتاتوا على النبي وصالح أتباعه وبرزوا للعالم فيما شاؤا من القحة والدعارة مدعين انهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب فتجلوا للقرآن أعداء فى ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه مالايحتمله ويفسرونه طبقا لاهوائهم ويكلفونه من التأويل مايكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل لاجله والله يقول (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً) ويقول (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) ويقول (الحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ماكثين فيه أبداً) وكذلك يقول (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه) ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم

غفل أكثر المفسرين أو جهلوا الغرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمى اليه فقالوا ان القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية الا أتى بشىء من مسائله فجعلوه كتاب جغرافية وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا وادعوا انه أتى من كل فن بطرف فحملوه من التأويل ما ينبو عنه ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ووسوست لهم بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم برآء منه فكانوا أضر عليهم من العدو المبين

لترجع بأبيك الى ماذكره أولئك المفسرون فى شرح ارم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد والى ماقالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل للارض ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما الى آخر ماقالوا كما ألفتك الى ماقالوه فى تعليل مايشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء وبرودتها فى الصيف اذ عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ولما كانت الشمس تغرب فتدخل فى جوف الارض كان تأثيرها في المياه التى فى جوف الارض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها في أثناء الصيف . هذا بعض ماأتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فأضحكوا منهم الصبية والبله فضلا عن العقلاء من الناس كما أنهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء

بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك كتابه وأولئك أئمته فيالله من الصديق الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بان القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه فجعلوا يخومون حول المعانى البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين أحدهما باطنى والآخر ظاهرى وادعوا ان الرسول الذى أتى به لم يصل الى ادراك مافيه من المعانى الباطنية مع انه يقول مامعناه أنا أعلم بكتاب الله تعالى ولو علمت باعلم منى به لرحلت اليه أو كما قال

أرعنى سمعك أنص عليه ان المتدبر للقرآن يرى ان النبي صلى الله عليه وسلم ماسئل فى شىء مما لم يبعث لاجله الا صرف السائل عن قصده وتلقاه بغير مايترقب تنبيها الى أنه الاولى بالقصد والاليق بما هو من حدود الرسل ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع. ينوّه الى ذلك قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) وقوله (يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وقوله (يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها انما أنت منذر من يخشاها) فبين الله فى هذه الآيات ان وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لاريب فيها وليس

وظيفتهم تعيين وقتها . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعاً صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) تدلك هذه الآية وما سبق على ماقلناه لك آنفا من ان النبي صلى الله عليه وسلم في اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها رجوعا بهم الى السنة الفطرية .

٤

« هل أسس الاسلام على السيف ؟ »

لهج معظم الاوربيين . وضعاف العقول من المسلمين بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود الا لانه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل وتذلل بين يديه العظماء وتلجىء المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم وصيانة لاملاكهم وأسبابهم وقد ضربوا الامثال بما أقام النبي صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ثم بما عمل خلفاؤه من بعده على انهم لو قرؤا القرآن وشيأ من التاريخ وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وعرفوا شيأ من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت لما تطرق ذلك الخطأ الى عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم حتى يرموا النبي صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم انه لا يسعنى أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ولكنني أريد أن أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو كما أريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات

النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه لترى انه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحدا بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب ومايتذكر الا أولو الالباب

لاحاجة لى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا مما لايرتاب فيه أحد

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فجعل النبي يسارّ بدعوته من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من قلبه فلم يسل لتأييد رسالته الا سيف الهدى والحجة الدامغة فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفارى ومن السابقين الى الاسلام خالد بن العاص جاء النبي فقال له الى م تدعو يامحمد فقال (أدعوك الى عبادة الله وحده لاشريك له وان تخلع ما أنت عليه من عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك وأن لاتقتل ولدك خشية الفقر وأن لاتقرب الفاحشة ماظهر منها وما بطن وان لاتقتل نفسا حرم الله قتلها الا بالحق وأن لاتقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وان توفى الكيل والميزان بالقسط وان تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قربك وان توفى لمن عاهدت) فأسلم وهكذا دخل هؤلاء الاشراف في الاسلام غير مهددين ولا ملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال وما أتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول فى الاسلام

اذ ذاك لارغبة في جاه ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاها وأقوى عصبية وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى أطاعوه وتبعوا شرعه واحتملوا الاذى فى تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

ثم جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة فسخرت منه قريش وكانوا يضحكون منه فى مجالسهم وهو مع ذلك لايثنى عزمه ولا يرجع عن تسفيه أحلامهم وتقبيح آلهتهم فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاؤا الى أبي طالب عمه وقالوا له ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخى أبق على نفسك ولا تحملنى من الامر مالا أطيقه فظن الرسول أن عمه خاذله فقال والله ياعم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ثم بكى وولى وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ماخلد فى التاريخ . ومن ذلك مارواه البخارى قال(بينما النبي يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلا أن

يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم

ولقد عم الاذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان في الجاهلية سيدا شريفا اشتد عليه أذى قريش حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقد له ابن الدغنة على أن يعبد الله في داره فيصلى فيها ماشاء ويقرأ ماشاء ولايؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم فلما ابتنى أبو بكر مسجداً بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذى عاقدت الله عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الىّ ذمتى فانى لا أحب أن تسمع العرب انى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب وأحدقت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمداً صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى جوف الكعبة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش مارأى جعل يخرج فى الاسواق العربية ويعرض نفسه على القبائل ليحموه فكان منهم من برده

رداً جميلا ومنهم من يلق عليه قولا ثقيلا حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل لكم في خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيأ ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليل حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبي على ماهو فى كتب السنة الصحيحة. فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبي صلى الله عليه وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه واتفقوا على ان يأخذوا من كل قبيلة شابا جلداً ويجتمعوا امام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فأ لهم الله النبي بجميع مادبر له أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عززوه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية. واننى هنا لواثق أنه لايكاد يوجد من المعارضين من يستطيع النبجح فينكر شيأ من ذلك أو يدعى ان سيفاً أعمل فى خلال تلك السنين فما علىّ الا أن أسرد لك أسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختاراً أشدها وأهمها فى اظهار الدين فأقول. أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش وأخرجوه هو وأصحابه من ديارهم فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) وقال

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) فلم يبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) فانظر الى ماشرعه الله للمسلمين من القتال أتجده يخالف فى شيء مايسمى فى هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس . كلا. فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لاجل اضعاف شوكتهم وفل غرارهم حتى لايتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبي فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلو تركوا بلامناوشة لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم وسداد الرأى أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق

عليهم السبل فكان يرسل السرايا ويخرج بنفسه في المغازى حتى لاتمر عير لقريش الا صادرها وحرم المشركين مما فيها من الامتعة فكان مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التى انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى خرج النبى صلى الله عليه وسلم مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لها مثقال فصاعداً الا بعثت به في تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقى الجمعان وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)

(٢) كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة مالا قبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الكبرى التى أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر فلقد قال رؤساؤهم للنبى صلى الله عليه وسلم وقد حذرهم عاقبة البغي « لا يغرنك يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من نلاقى » فبنقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار اليهم النبى صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة فلما آنسوا من أنفسهم الضعف واستولى على أفئدتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا

من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال فقبل منهم ذلك

(٣) عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة فخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ ماحمل فقالت قريش « ان محمداً لايدخلها عنوة ابداً » ثم انهم حبسوه فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما بلغه ذلك الخبر « لانبرح حتى نناجزهم الحرب » وبايع أصحابه على القتال فخافت لذلك قريش فارسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على ماتراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

« ٤ » ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة فى تلك السنة وعادوا لقضاء عمرتهم فى العام التالى ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح فلم يخفر ذمة ولم ينقض عهداً حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك أن قد دخل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخلت فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر وكان بين هاتين القبيلتين أضغان كثيرة وترات قديمة فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا فضربه فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضباً

فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم وقتلوا منهم فارسلت خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها

أما قريش فانها استيقظت فرأت أنها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينهم وبين المسلمين فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا تروٍ ولا تبصر فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ويمد في أجله فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ماجاء به الى المدينة فقال له عليه الصلاة والسلام هل كان من حدث بعد . قال لا . فقال الرسول . فنحن على مدتنا الاولى وصلحنا السابق ولم يزدعن ذلك . ومن المعلوم ان قريشا الآن قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد شعر بما أضمره النبي صلى الله عليه وسلم لقريش فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه ان يتأهبوا للسفر وأخبر أبا بكر بما عزم عليه فقال له أبو بكر أو ليس بينك وبين قريش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر الاعراب الذين حول المدينة وسار النبي صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد ان يدخل من أسفل مكة ودخل هو من أعلاها ونادى مناديه « ألا من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن

ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا باستار الكعبة لانه اعتبرهم كما يقال فى هذا العصر « مجرمين سياسيين »

واعلم انه لم يقاتل في هذا الفتح الا جيش خالد بن الوليد ولكن بعد ان تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا وقتل من جيشه اثنان فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الاوثان والاداناس ثم خطب فى الناس فبين كثيراً من الاحكام ثم ختم خطبته بقوله تعالى (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثي وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ماورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(٥) على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصابة الوثنيين أخذ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الاولى فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف وقالوا قد فرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا أما النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه أجمع

رأيه على المسير اليهم فخرج في اثنى عشر ألفاً حتى وصل الى العدو فالتحم الجمعان وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً وضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بروح منه فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هى العليا والله عزيز حكيم

هذه هى جلّى الغزوات وأقواها في تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه .فهل رأيت في جميع ماقصصته عليك وانه لحق أن النبي بدأ أحداً بعدوان . كيف وهذا كتاب الله يقول (لاعدوان الا على الظالمين)

ارجع الى كتب السير وجرد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك كلا

وخلاصة القول أن البصير بالتاريخ يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة كما قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن)

انظر الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

(٥)

(وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين)

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية فتراهم يتشدقون بأن الاحكام يجب أن تكون مناسبة للازمان مختلفة باختلاف أهلها فيراعى فى القوانين والشرائع الاماكن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها فى التحضر والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات التى تتفاضل فيها الامم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ثم كانك بهم وقد طفرت عقولهم فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبي عربى لم يعرف من أحوال الامم الاخرى الا قليلا جداً كما أنه لم يعلم ماسيتوالى بعده من الامم المختلفة والاحوال المتباينة والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكأنى بأمثال أولئك القوم قد أقاموا على أنفسهم الحجة بانهم لا يفقهون مايتلى عليهم من كتاب الله تعالى . يسمعون القرآن وانما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء ويرون آياته بأعينهم وانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور

فيما بسطت لك ههنا من امر أولئك القوم أريد ان آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامى دين الفطرة البشرية التى فطر الناس عليها فى كل زمان ومكان صالحا لكل أمة وكل جيل مصلحا لكل من تمسك بسببه المتين وعمل بكتابه المبين

اعلم ان دين الله فى كل الامم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هى الاحكام الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالى (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ولانشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده الآية)

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به وتذكير الناس أن يتمسكوا به فما كان له أن يبطل حقا أو ينكر صالحا أو يجحد نبيا او يستقبح حسنا ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب وانه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً فلم يأت النبي صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ولكن بما قرره الله من الحق وأوحى به الى أنبيائه من قبل كما قال عز من قائل (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

الكتاب ومهيمنا عليه) على اننا نعلم ماتقرر فى الاسلام من ان شرع من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ . فترى من جميع ماتقدم ان الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ماسبق من الشرائع والاخذ بما تقرر من النواميس العادلة سواء ورد بها دين ابراهيم أودين عيسى بن مريم اوغيرهما نعم ان الاسلام نسخ بعض مافرض الله على الماضين من الكلف الشاقة التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) فانهم لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على المؤمنين رؤفا بهم رحيما لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفسا الا وسعها فكان دينه بذلك أكثر الاديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك مع أن أكثر الاحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والامراء فلم يحط الاسلام فى بدء نشأته بكل مايلزم البشر من القوانين والاحكام فنقول ان جميع ماوضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الاحكام انما بنوه على ماأباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام العامة التى قررها لهم الشرع على ماسنأتى على تفصيله قريبا فكل ماجاء مبنيا على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أواستنبطه

أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هو وجه كون الدين الاسلامى دين الابد وختام الاديان . ولنأت لك الآن بشىء من قواعد الاسلام لترى منها وجه ماقلناه لك آنفا فتدبره فان للدين كما سترى قواعد أصلية ثابتة تقدر بها الاحكام حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة فى الازمان المختلفة بين الامم المختلفة

(١) الاصل الاول الاجتهاد وأعنى به أن تستنبط الاحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل اليه الافهام السليمة فكل من يعرف لغة القرآن لاينبغى له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح فى السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من أرادوا ان يحجروا على العقول البشرية ويقيموا عليها أوصياء من الاولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فان السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلدا ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل اليه ادراكه وبلغه جهده ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع فان الله لم يحرم من الاجر أى مجتهد نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحدا ولمن اجتهد فأصاب أجرين . ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الاول منه لاسباب . منها انتشار العجمة فى المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لايحسنون العربية ان يفهموا القرآن على وجهه ومن الاسباب أيضاً فيما أظن جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته والا فكيف عموا عن قوله

تعالى (ولقد يسرنا ـ سهلنا ـ القرآن للذكر ـ للتذكر ـ فهل من مدكر .. أى فهل من طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه) أم كيف غفلوا عما قبح الله به الاولياء من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا آباءهم وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا وفيما عملوا حيث قال (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) واذا شئت ان تستقصى ماورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين والتشهير بهم فعليك بقراءة القرآن الكريم فستجد منه مافيه مقنع وما يتذكر الا أولو الالباب

(٢) الاصل الثانى القصد فى الاعمال واقامة مالا يشق على النفوس من التكاليف فقد طالما نص القرآن الكريم على ان الله لا يكلف نفسا الا وسعها فكل ماليس فى وسع الانسان ان يقوم به فلا تكليف فيه . والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ولا يوقعه فى العناء والتعب فان هذا هو مايفهم من التعبير بكلمة وسع التى معناها السعة وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين فقد ورد فى البخارى « ان يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضاً ان النبى صلى الله عليه وسلم قال (سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيأ من الدجلة والقصد القصد) ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه وأن يتباعد عن المباحات وأن يحمل نفسه فوق طاقتها فان هذا ليس من الدين فى شىء . واعلم أن المتغالين فى دينهم أقرب الناس الى العجز عن القيام به واحتمال تكاليفه

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل) وقال (ان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) وقال تعالى (ماجعل عليكم في الدين من حرج) وقال أيضاً (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومما يناسب هذا الموضوع نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ومنتحليه في مصر وذلك لبس البرطلة فلقد هاج وماج بعض مدعي العلم على من قال بحل لبسها للمسلم فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا على الله وينسبوا ذلك لدينه . ان البرطلة ليست لباساً دينياً وانما هي لباس أمم مختلفة الملل والنحل فمنهم النصراني ومنهم المجوسي ومنهم اليهودي ومنهم العربي المسلم يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها نعم انها تختلف أشكالها وصورها ولكنها ذات اسم واحد تندرج تحت نوع واحد

فان كان شبهة أولئك القوم انها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح قلنا ان هذا لا يقتضي التحريم فهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم العمائم التي فوق رؤسنا أو القفاطين التي تتدلى اكمامها أو الجبب (الفرجيات) التي يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه فليفقه أولئك القوم انهم يقفون ماليس لهم به علم والله تعالى يقول (ولا تقف ماليس لك به علم) . ان الطيالسة التي استعملها العلماء في خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم كما أن هذه الجبب الواسعة المستعملة في مصر انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم ان من موضوع هذا الباب تحرج كثير من شبيبة المسلمين ان يؤدوا مافرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك قالوا اننا لايمكننا التحرز من النجس لاسيما قطرات البول وكثيراً مايقضى الانسان حاجته فلا يجد من الماء مايتطهر به .ومنهم من يقول ان من المشقة أن أخلع نعلىّ وألبسهما عند كل صلاة ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين لانه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة التى تكون عادة فى الطرقات.فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى وناهيته عن الفحشاء والمنكر انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغلون والدعاة المعطلون

فمن لى أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقى مرفوعا « اذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر أفيهما خبث فان وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما » وما رواه البيهقى أيضا عن أم سلمة «انها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى فى المكان القذر فقالت أم سلمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره مابعده » وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه « قلنا يارسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة فقال النبى عليه الصلاة والسلام(الطرق يطهر بعضها بعضا » وفى حديث البيهقى مرفوعا « اذا وطىء أحدكم بنعليه فى الاذى فان التراب له طهور »وقد رأى المالكية أن المعتمد فى مذهبهم ان ازلة النجاسة سنة أعنى انها لاتبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها . فلم لايصلى

ذلك المسلم فى نعليه ؟ ولم لايصلى وفي سراويله قطرات البول ولم يسهل عليه التحرز منها ؟ ولم لايصلى المسلم في بلاد لم يستطع ان يستنجى فيها ؟ أيظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول فى قرآنه « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) الاصل الثالث من أصول الاسلام انه لاضرر ولاضرار : فلا يجوز لمسلم ان يفعل مافيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله كما لايجوز له أن يضار غيره فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لايطيق وشرب المسكر والمقامرة وايذاء الغير باى نوع من ضروب الاذى حسبما تعارفه القوم الذين يعيش فيهم كقتل النفس والسرقة والرشوة والخداع والتمويه والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا

لعلك اطلعت على ماقرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لاسباب كثيرة . منها أن يكون بالانسان بخر أو رائحة ثوم أو بصل أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل مايضر أو تشمئز منه نفوس المصلين ولا يخفى أن هذا الاصل ينبنى عليه كثير من الاحكام الفرعية والنوازل اليومية فى كل عصر

(٤) الاصل الرابع سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح وكل ماوصل بك الى مكروه فهو مكروه وكل ما أوقعك فى محرم فهو محرم فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمقدار غايتها. ولنضرب لك مثلا ماجاء به الشرع من

اباحة تعدد الزوجات فان هذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها العدل ومنها أن لا يفضى التزوج الى ضرر أو محرم أو فساد فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق وافساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها أو قسوه عليهم وايذائه لهم فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار يمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة الا لمن أمكنه أن يقوم بجميع ماشرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد (واعلم) ان من أهم أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به فاذا غلب على الظن ان العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه يعطى حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يعترض علينا هنا بأن أمر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى يبنى عليه تحريم ذلك على الرجال فاننا على تسليم أنه غير محقق جدلا لا يسعنا ان ننكر انه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا

(٥) الاصل الخامس من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا ان أقطف ماجاء لاستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال مانصه

اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ننظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقى فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض

الامر الى الله فى فهمه والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل وأزيل من امامه جميع العقبات واتسع له المجال الى غير حد فماذا عسى يبلغ اليه نظار الفيلسوف حتى يذهب الى ما هو أبعد من هذا وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا الفضاء . ان لم يكن فى هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وابعادها » اه ولا يخفى ان تقرير هذا الاصل فى الاسلام يدلك دلالة واضحة على ان الدين المحمدى لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره وبحثه بل انه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتماد على ظاهر المنقول

(اباحة التجمل بأنواع الزينة)

قال الاستاذ الامام فى كتاب الاسلام والنصرانية ما نصه

أباح الاسلام لاهله التجمل بانواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية جاء فى الكتاب العزيز (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن

والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) ثم قال (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)

(٧) الاصل السابع وجوب امتثال ماقاله النبى صلى الله عليه وسلم شرعاً دون ماذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأى

(اعلم) أنه قد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طرق النجاح والاستقامة واقامة العدل فيهم وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض وقد علمنا النبى صلى الله عليه وسلم ذلك وبينه باجلى عبارة وأوضحها كما روته الكتب الصحيحة فلنأتك هنا بشىء مما ورد فيها

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤس النخل فقال مايصنع هؤلاء فقالوا يلقحون يجعلون الذكر فى الانثى فتلقح فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم ما أظن يغنى ذلك شيئاً قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل

(وروى) مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال ماتصنعون قالوا كنا نصنعه (٣) قال لعلكم لولم تفعلوا كان خيراً فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيي فانما أنا بشر

(وروى) أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال لولم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصا فمر بهم فقال مالنخلكم قالوا قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمور دنياكم

كأنى بك ترى ماحكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه وهو سيد المنصفين صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر وان أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه . ومن هنا نعلم انه لايجب الاخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لان هذا ليس مما يوحى به اليه من الشرائع

(٨) الاصل الثامن المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فان لهم مالهم وعليهم ماعليهم فلا يفضل أحد أحداً فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فقد جعل الله الغنى والفقير والمأمور والامير والعزيز والحقير سواء في أحكامه سواء في ذلك الاحكام الدنيوية والاخروية واعتبر ذلك بصيغ العموم التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدَّعون فهم كلام الله ويظهرون للعالم بسبحم وسواد موضع السجود من جباههم طالما حابوا الامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق أغراضهم حرصا منهم على استرضاء من لا يضرون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال وخالفوا أمر القرآن كما في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات) وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واذا أردت أن تأتى على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الاصل التاسع أن لا تزر وازرة وزر أخرى ففى سورة الطور (كل امرىء بما كسب رهين) وفي سورة المدثر (كل نفس بما كسبت

رهينة) وقال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وفي سورة النجم (أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفي)

ولا يقال ان من أحكام الشريعة مالا يقتصر على الجانى كما فى دية القتيل فانها على عاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لانا نقول ان أمر الدية انما ألزمت بها العاقلة فى الشعوب التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يدا واحدة على من سواهم فاذا اصاب أحدهم شيء تعاهد الباقى على الاخذ بثاره أو المطالبة بديته كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ولذلك تجد الفقهاء ينصون على أنه لا عاقلة فى الامم التى لا تنتضا من قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التى لا أثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى أو البطن أو القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما أخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم وهذا من الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للاحوال البشرية ملائما لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام أو من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما ان من أصوله جواز التحكيم

واعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل

والسرقة ونحوها وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع أمر تحديده الى الحكام ونوابهم فقد أجمع الائمة على ان التعزير مشروع فى كل جناية لا حد فيها ولا كفارة وجوز الامام مالك للامام الحاكم أن يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة

أما التحكيم فقد أجازه الشارع في الاصول المالية وذلك أن يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأى للفصل فيما شجر بينهما وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف فى تقرره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم

(١١) الاصل الحادى عشر تقدير كثير من الاحكام بما تعورف بين الناس . ولايخفى ان هذا الاصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريباً جميع النوازل على تغاير أشكالها وتباين أحوال أربابها فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى فى تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين فرب نفقة تلائم زوجة على أنها لاتلائم أخرى وقد كثر التعبير بكلمة « المعروف » و « العرف » فى القرآن العزيز وعلق عليهما تقرير كثير من الاحكام ومن البديهى أنه لامعنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفاً مألوفا غير مستنكر كما أن المنكر هو مالايجرى به عرف وألفة فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى (طاعة وقول معروف) وقوله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقوله (الامن أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) وقوله (وعاشروهن

بالمعروف) وقوله تعالى (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وقوله (وأتمروا بينكم بمعروف) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف)وقوله (وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا)وقوله في شأن الاوصياء(ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) فترى في هذه الآيات وكثير غيرها أن الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ماجرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما بل أطلق الامر اطلاقا ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة وتقدير كثير من الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعملهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما ان من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها فان هذا تخريج للكتاب العربي المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بألفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها من النوازل والاحوال فمن ذلك كلمات « الصالحين » و« الصالحات » و«صالحا» في كثير من الآيات فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس سوءا كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وان كل مسيء فهو غير صالح وانه

لاصلاح في سوء فيدخل فى ذلك الملك الجائر والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لا تزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا فلا جرم أن مثل هذا الحاكم لاشائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا . ومن هنا فسر أستاذنا قوله تعالى (أن الارض يرثها عبادى الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم مااستطاعوا من القوة وأحسنوا الى أنفسهم فكاتفوا الامم فى الاخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ولم يأتوا البيوت الا من أبوابها

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الامر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ثم ان منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات . ومنهم اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن ان من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال مايزيد عن حاجاته ومن قرأ (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية

ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيرا من النعم وان الله لا يظلم الناس شيأ ولكن الناس أنفسهم يظلمون

نددت الامم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين لما

نزل بهم من الضعف وانحلال العقدة والفشل وزعموا ان منشأ ذلك هو أصول الدين الاسلامى محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ونحو (انى توكلت على الله ربى وربكم) ونحو (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ونحو ما ورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »

انى لا يسعنى هنا أن أفند جميع ما قيل فى هذا المقام لضيقه ولكن حسبي أن أنبهك الى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة وبرهان واهن فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل على الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات وخلق ما بينهما من لحمة السببية فالتماس تلك الاسباب لا ينافى التوكل فى شىء بل انه نفس التوكل ما تفسير أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل مما أفضى بهم الى الاضمحلال فانما منشؤه الجهل بلغة القرآن الكريم ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه وبجميع أعماله الى أن لكل شىء سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب أوما سمعت قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ونحو (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الى غير ذلك من الآيات

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم لرزقكم كما يرزق الطير الحديث لتجلى لك الامر واضحا لا لبس فيه فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ـ لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها أغذيتها ـ بل قال تغدو خماصا وتروح بطانا

وفي صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى

على ان الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة وانها من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها فقال فى الكتاب العزيز

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أى أكثرنا) مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فليتق الله المسلمون فى دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين

والخلاصة ان الدين الاسلامى لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والاصول العامة وأشباهها جاء صالحا لان يبتغى بواسطته كل خير في كل زمان ومكان . ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وان شرعه خاتم الشرائع الالهية كما أنه لم يخالف فى شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ولذلك لاحرج علينا فى تسميته « دين الفطرة » وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطمعن الجاهلين من الامم قصار النظر فرأينا أن نأتى عليها هنا تتميما للغرض الذى وضعنا له هذه العجالة الا أننا نريد قبل ذلك أن نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين وما يجب ان يكونوا عليه وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمنى هذا الزمان والله يوفقك الى سبيل الرشاد

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله) أى لا يحملنكم بعض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم بل يجب عليكم العدل كما يجب عليكم ان تتعاونوا على الاحسان واتقاء مايسخط الله من مخالفة أوامره وفى معنى ذلك قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) فان الله يأمرنا هنا أن لا نطيع ماتكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه بل يجب أن يوفى كل

ذى حق حقه وأن تقدر المعاملة بمعيار العدل فانه أقرب للتقوى

(٢) وجاء فى سورة النور (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم) يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله) (ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق) (يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف) (الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا) (الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان فى ضمائرهم انهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون ولكن اذا كان لهم الحق جاؤا الى المحاكم سراعاً مذعنين وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شىء وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين

(٣) وجاء فى افتتاح سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى) (صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكوة) (فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الى ان قال والذين هم لاماناتهم وعهدهم) (راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) فليت شعرى كيف يكون لمؤمنى هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون مع ان الله

تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون والذين هم على اللغو مقبلون والذين هم للزكاة مانعون والذين هم لشهواتهم مرضون والذين هم لاماناتهم وعهدهم خائنون .

(٤) وجاء في سورة الانفال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) الى أن قال (أولئك هم المؤمنون حقا)

(٥) وفي سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) الى ان قال . انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله (انما) ثم تأكيده ذلك بقوله (أولئك هم الصادقون)

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة (يأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن) يؤخذ من هذه الآية الكريمة ان ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على ان محمداً رسول الله فان هذا لا يكفى ولقد بين الله في هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمناً فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم . فأبيك أيها المؤمن أتجد

فيما وصف الله به المؤمنين اتخاذ المسابح واطالة اللحى واختضاب الشعر وتحديب الظهر وملازمة الزوايا ؟ ألا ان الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به

الخلاصة ان من آثار الايمان القلبي الصادق اقامة ماوقع الايمان به وملازمة حدوده ومخالفة وساوس الصدور فمتى رأيت من ينقاد الى شيطانه ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته فاعلم أنه غير مؤمن أوما رأيت ما قاله تعالى فى قرآنه الكريم (انه ـ أى الشيطان ـ ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم أنه غير مؤمن أفيحسب أولئك الضالون انهم على شيء وقد جاء فى البخارى عن سفيان ابن عيينة قال مافي القرآن أشد على من قوله تعالى (ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم ـ أى القرآن) ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع مافيها والاتيان به على وجهه فان جاء العمل دون ذلك فانه لا يسمى اقامة لما حوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شيء من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل ما فيها

ومن هنا يتضح ان الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل وهذا والله أعلم سر ماروا ه البخارى فى صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » قال (١) القسطلاني ـ الايمان هو التصديق بالقلب والاعتراف باللسان وتقرره

الاعمال الصالحة واجتناب المناهى فاذا زنى أو شرب الخمر أو سرق ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه ـ اهـ وأمثال ذلك فى الكتاب الكريم والسنة كثير ولكنها لاتعمى الابصار

هذا والمستقرىء لعبارات القرآن الكريم قلما يجد فعلا أو وصفاً مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات فمن ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) وهلم جراً يريد الله بذلك وهو أعلم ان يوقظ العقول الى أن مجرد معنى الايمان فى اللغة أى الاعتقاد لايكفى فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى يقرن اعتقاده بصالح الاعمال . واعلم ان الله تعالى قد ضمن الامن والهداية لمن لم يشب ايمانه بظلم ولا جور فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) ومن هنا نعلم ان الايمان لاينجى صاحبه من النوازل والمصائب حتى يقرن كما قلنا بالعمل الصالح . ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان فليقصر أولئك الاخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً

(الرق فى الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة)

تمهيد ـ كانت القوانين فى الازمان السالفة غالبا من الاوضاع البشرية فكان يسن الفرد أو الافراد ما شاؤا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الانسان فيما لهم وماعليهم كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار على مقتضاها فكان

عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية هو منشأ تسخير القوى للضعيف وغلبته عليه حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك وقاهر ومقهور .

ان استخدام شخص لآخر واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان فان من استقرأ التاريخ وجد أنه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله وجدت أجرامه فى كل جاهلية ثم تعدتها الى ما كان معها من الامم المتحضرة وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا فلقد عرف الاسترقاق فى اليهودية واليونان والرومانيين كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الاخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق . أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو في دين عليه وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا . والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شىء من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم

أقبح من معاملة الحيوانات العجم سواء فى ذلك العبيد المستخدمة في المنازل وعبيد الحقول والمزارع فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين مهينين معزولين محقرين مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق ولم يضع حدوداً تراعى ولا وسيلة تؤدى يوماما الى نسخه أو تقليله نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق وببعض نصائح للسادة ليمكنوا الرقيق من تلقى ماجاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينه على ان كثيراً من الامم المسيحية كانوا أشره الناس على اتخاذ الرقيق وأقساهم فى معاملته

انتشر الاسترقاق بين الرومان منذ نشأتهم الاولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا فكانوا يملكونهم إما بحرب أو شراء أو اختطاف ولا يعتبرونهم الا متاعا ولقد تغالوا فى السيطرة عليهم فلقد كان للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خف في الجملة على الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة فلقد كان لامراء الرومان وأشرافهم الالوف من الارقاء يستخدمونهم فيما شاؤا ويوقعون بهم من الآلام ماشاؤا غير مسؤلين عما فعلوا .

ان دخول الدين المسيحى فى أوروبا لم يقلل من الاسترقاق الا من جهة واحدة . ذلك أن الرقيق كان يصير حرا بالرهبانية وانقطاعه الى خدمة الدين على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحيي أوروبا لم يكن بأخف

بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس ولقد جاء فى جملة قوانينهم المدنية ان الاسترقاق من الامور الطبيعية كما أنها قدرت أثمان العبيد واعتبرت فى تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والاعمال ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ولا بينهم وبين الاحرار وقد قدر القانون أصرم العقوبات فيما اذا تزوج الرقيق حرة فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل وقضى على الزوج أن يحرق حياً . كان ذلك حال الاسترقاق في أوروبا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على انقاضها المملكتان الشرقية والغربية لم يقف أمر الاسترقاق الى الحد الذى كان مألوفاً عند سلفهم بل كان لاشراف الامتين وأمرائها القول الفصل والرأى الاعلى والكلمة النافذة في الفلاحين الذين تحت أيديهم فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم فلم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيأ من الحدود

على ان الكنائس فى أوروبا قد اتخذت الارقاء وأباحت لغيرها اتخاذهم كما ان كثيرا من الناس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من الشحاذة ولقطع دابر السارقين وقطاع الطرق (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان فى أمريكا الشمالية ولم يزل فاشياً فيهم حتى كانت الحروب الدينية التى تأججت نارها فى سنة

١٨٦٥ الميلادية

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ماهم عليه من العلم الغزير والتحضر الذى لم يسبقوا اليه فكان الامريكى الابيض النصرانى يملك الامة السوداء ويولدها البنين على انه مع ذلك لايعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم اخوته من صلب أبيه

وبالجملة يمكن الحكم بان الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه كما أن الامم المسيحية على اختلافها وتباين مشاربها كانت لاتبالى أن تسترق من شاءت وان تستخدم الرقيق كيف شاءت وتعامله كما شاءت ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا هم وغيرهم من الامم المتحضرة على حماية نوع الانسان والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ماتقتضيه النواميس الشرعية . على أننا شاهدنا بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل بل دوعى فيها مقتضيات النظام . فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثا بلاد السودان المصرى فهم العبيد الذين كانوا هناك بمنادرة ساداتهم لعلمهم أن الحكومات النظامية المتحضرة هى حامية الحرية ومؤيدتها فلما رأت الامة الفاتحة أن هذا لابد أن يفضى الى تعطيل الاعمال وارتباك الاحوال وبوار الحقول والمزارع أقرت ما كان على ما كان وجارت أحكام الزمان والمكان .

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية فدونك ما فعل الاسلام في الرقيق والاسترقاق

(١) سوّى الاسلام بين الامم من غير اعتبار اختلاف أصنافها وألوانها فسوّى بين الابيض والاسود والبدوى والمتحضر والرعايا والمرعيين والرجال والنساء والمسلمين واليهود والنصارى ما داموا في سلم

انظر الى المسلمين وهم في المسجد يؤدون فريضة الصلاة أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية في صدر الاسلام أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر أو من فاضل ومفضول كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر ما يتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع

«أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الاعن طيب نفس فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعد ـ كتاب الله ـ أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربىّ فضل على عجمىّ الا بالتقوى»

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم فى مقدمة الامم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم وتجنبوهم وحرموهم كثيراً من المزايا التى استمتع بها البيض ولطالما نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافى عن مخالطتهم

حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس لا سيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما يفعل النخاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الاتراك وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله فان هذا من العبث الذى ينبغى أن تصان عقول العقلاء عنه

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب التى أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم لالغرض سوى النهب والسلب والبطش مع العدوان على الغير لا يجوز استرقاقهم بحال سواء كانوا مسلمين أو غيرهم كتابيين أو وثنيين أو مجوسا .

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الاوثان فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا فاذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون ما وصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى في كثير من الامراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام

المتاع ثم يسوقونهم الى بيوتهم اما للخدمة واما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش ابتنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسوّل فافتاتوا على الله ونسبوا اليه ما نسبوا متقولين عليه وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) ان هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا ذلك ان بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جداً ليبيعوهن الى الامراء والمثرين من الرجال ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتى اذا صارت احداهن في ملك أحد استباح منها واتخذها فراشا يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الاوهام هذا . ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق فى الاسلام فنقول

(٢) كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله

(٣) مجرد دخول العدوّ المحارب دار الاسلام أمان له من السبي عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل

(٤) للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد

البيت . أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوربا فى القرن الثالث عشر من تحريم التزاوج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الاحرار وانه يجب قتل المرأة التى ينكحها عبد كما يجب احراقه حياً ؟

(٥) جاء الاسلام فوضع من الاصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق لولا ان الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على مانعلم فى أمر الاسترقاق وبديهى انه لايمكن ان يزيل النبي عليه السلام في بضع سنين أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء . لذلك كان النبي عليه السلام يرغب الناس فى العتق كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك

(١) اخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بان العتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله

(٢) انه جعل كفارة لبعض الخطايا والجنث فى بعض الايمان

(٣) ان مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع وللامام أحمد فى رواية انها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر وان للعبد الاستغلال ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم الكتابة وان على سيده ان يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه مايفى فالحنفية تجبره على الأداء . واذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب لانه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه

(٥) يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق فأقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضروريا

(٦) اتفق الأئمة على انه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه انه عبده فكذبه الغلام فالقول قول المكذب مع يمينه انه حر. فترى فى هذه الصورة ان قاعدة (البينة على المدعى واليمين على من انكر) قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا بل جعل القول للمنكر بيمينه ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ما وجد لذلك سبيلا

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته أو أن يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) ان من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته

(٩) استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيراً فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه مالا يطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في المأكل والملبس ونحوهما

المرأة في نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة فى الاسلام نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة ثم نردف ذلك ببيان ما منح الله المرأة فى الاسلام غير معولين فى جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى وسننه الصحيحة

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل حتى ضربت بهم الامثال أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم ؟ كان للرجل أن يتزوج من النساء من شاء من غير وقوف عند حد ولا تقيد بشرط ولا سؤال عن حق ولقد كان له أيضا أن يتخذ من الاخدان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم نجد حالة المرأة فيهم أبشع واشنع فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة سلعة محضة فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته كما كان له ان يهبها لمن شاء وأن يبيعها ممن شاء هذا عند وثني العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنا من ملك اليمين فلقد كان للاب أن يبيع ابنته قبل بلوغها كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك

وكانت العرب وثنيهم ويهوديهم يتزوجون من النساء ولا يقتصرون على عدد كما كان نكاح المتعة فاشيا فيهم حتى جاء الاسلام فأبطله على ما يأتى

كانت العرب تئد البنات اما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن حتى قال قائلهم دفن البنات من المكرمات

هكذا كان شأن المرأة بين اكثر قبائل العرب وغيرهم فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا اكثر حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم ان أحسن القوانين مالا يشتمل على التضييق ولا يلائم فريقا دون فريق وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك النواميس التى تلائم بلا ريب أرقى الامم تحضرا وأصدقهم فكرا كما تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون في مهد الفطرة الاولى .

ساوى الاسلام بين الذكران والاناث في جميع التكاليف الشرعية الا فى أحوال خاصة قليلة كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر وأن يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من العقود مادام عاقلا رشيدا

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرنا فتمتعت النساء بما ملكت أيمانهن من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر مع ان معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة ان تتصرف فيما ملكت يدها نعم قد دخلت الحكومة الانجليزية وقليل غيرها من أهل أوروبا منذ ثلاثين سنه بعض قوانين خولت للمرأة فيها ذلك ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل

جاء الاسلام وقد كانت المرأة لاتكاد تمتاز عن الحيوانات العجم

لاتقرأ ولا تفهم ولا تستفتى فى أمر ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهى فهلا علمت مافعل الاسلام جاء النبي فكان فى بيته أحسن اسوة للمسلمين وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات فى شأن النساء حتى اصبحن ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة كما أوجب على امهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم واناثهم (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمه) فكان الرجل (وكان ما كان فى الجاهلية) يأتى اليهن ويستفتيهن ويتلقى مايلقينه من أحكام الله ومكارم الاخلاق وبذلك اخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها وتعلم ان لادخل لاختلاف الصنف أو الشعوب أو الامم فى التفاضل فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعاً لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) لم يقل الله ان الرجال قوامون على النساء مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية أو لان عقولهم تخالف عقولهن ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل كما جعل من العلل أيضا ماقد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ولولا ذلك ما كان للرجل قيامة على المرأة ومن ذا الذى يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التى وصلت الليالى بالايام فى طلب العلم حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل

كما قال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال (هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)

أباح الشرع للمرأة ما دامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها وأن توكل غيرها فى نكاحها ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى غير كفء فهناك يعترض الولى عليها ويطلب من القاضى فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

فى الدر «نكحها على ان أمرها بيدها صح» قال ابن عابدين «هذا مقيد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت زوجتك نفسى على ان أمرى بيدى فقال الزوج قبلت» اه بتصرف فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها مع هذه المسامحة

فصل في تعدد الزوجات في الاسلام

تقدم لنا التلميح الى ماحشا به الاوروبيون كتبهم من الطعن فى الاسلام متمكسين بما اباحته الشريعة من اباحة تزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده ما استطاعوا ان يلصقوا بالاسلام ماليس من شيمه

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الطالح ميزانا لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه فمن

قائل بسد باب الاجتهاد ومن امام أو خليفة قضت عليه اغراضه البهيمية ان ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ماليس من دينه في شيء ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر مارضى الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم حتى ضاقت نفوسهم وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ولكن الله تعالى يقول فان خفتم الا تعدلوا فواحدة فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا في تحريم التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض عجبا أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التي يجب تقدير الاعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم ان المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز ان يتزوج الرجل ثانية مادامت الاولى في عصمته كما ذكره الامير على في كتابه « سر الاسلام » وما ذلك الا لانهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة وعرفوا ان من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ماللغايات من الاحكام فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لايستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا وذلك لانه أرسل رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ولا ريب أن ثمت أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لاحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الاحوال التى تقتضى ذلك ولأضرب لك مثلا رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ورجلا تزوج امرأة فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ورجلا تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل وهلم جرا فأمثال هؤلاء الرجال أما ان يصبروا مع العنت والشقة وقليل الصابرون وأما ان يأتو الفاحشة وأولئك هم الخاطئون

انى لارى كما يرى كل عاقل ان تعدد الزوجات بالغة مثالبه مابلغت أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ومن الشواهد التى يحسن ذكرها مانقله الامير على فى كتابه « سر الاسلام » عن السيده غوردون الانجليزية انها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية أو الشرقية اجمالا فرأت ان تعدد الزوجات أكثر ما يكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على أنفسهن فى تحصيل المرافق والاخذ بأسباب العيش وقد رأت تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد

جمعتنى المصادفات برجل اسبانى قابلته فى لوندره فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى فمما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات فقال انه يتمنى لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته فسألته فى ذلك فقال

ان امرأتى قد أصيبت بجنون وها هى تلك تعالج فى بيمارستان مجريط ولها على ذلك سنون كثيرة ولقد اضطرنى الامران اتخذ بعض الاخدان لعدم استطاعتى التزوج بأخرى فلو ان هذا كان مباحا لنا لكان لى عقب شرعى يرثنى فيما لدى من المال الكثير ويكون لى قرة عين وخير رفيق اطمئن به وأسكن اليه

ثم تقابلت فى اكسفورد مع دكتور فاضل وقد جرت عادة الانجليز انهم متى رأوا غريبا سألوه فى جميع ما يلج في صدورهم . سألنى ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات فى الاسلام وذكر انه يستقبحه فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الاسباب ثم قال انى أكاد أرى وجه ما تقوله ولكن لى كلمة فى نبيكم صلى الله عليه وسلم فقلت ماهى قال ان منزلة النبوة التى ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين اكثاره من عدد الزوجات فعند ذلك قلت له انى ياسيدى كثير التجارب وقد رأيت فى الانجليز وفى المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الامم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله ما دام يملك شيئا من المال وهذا أيها السيد أحد الاسباب فى قلة عدد ذرارى الاغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ولو ملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا أفتنكر بعد ذلك ان تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة وأضمن لنمو بنى الانسان فما كان من ذلك الفاضل الا أن قال ان معظم ماقلته حق لا مراء فيه ثم ذكرت له أسباب اكثار النبى من النساء مما

سنأتى عليه بعد وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لانى قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات فى بعض الاوقات أخذا مما عليه الناس فى أحوالهم الدنيوية التى لا يسعه انكار شىء منها فلما أضعفت من قوة تعصبه وفللت من حدته أخذت أسرد له الاسباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدرا لكثير من المفاسد انما هو أمر اضافي ولا يمكن اتخاذه حكما عاما فان ذلك يختلف باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال . انظر الى ما كان معروفا في بدء النصرانية من استقباح الزواج رأسا وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية فى الاعصر الخالية ان تغير فى الديور كثير من العقول الذكية التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة أما منشأ ذلك فقد كان اما تقليد المسيح عليه السلام أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ولا يزال قسوس الكثوليك يذهبون ذلك المذهب ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية قالوا ان المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته وقارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل « لا رهبانية فى الاسلام » ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير وقالوا شتان بين من غلب نفسه وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ولا يخفى بطلان هذه

القضية فانه لاتنافي بين الصلاح والزواج على ان تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ولا يخفى ان هذا ينافى مقتضيات العمران . ومطالب نظام الاكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعاً من الرسل فذانك موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء وهما ذانك الرسولان اللذان لا يسع نصرانياً ولا يهودياً انكار نبوتهما أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الاولى . هذا ونذكر لك هنا في زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم ما فيه غناء ان شاء الله تعالى فنقول . اعلم ان اكثر المسلمين اتفقوا على ان للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص مالم يكن لغيره من أمته وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ولا يخفى ان مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ولم يجدوا فى كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك مافيه مقنع ان شاء الله

فاعلم ان أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين على انها كانت بنت أربعين سنة

قضى النبي صلى الله عليه وسلم شبيبته وطائفة من شيخوخته ولا زوج له الا خديجة ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد أن مكثت مع النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها

جميع أولاده ما عدا ابراهيم فلم لم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو فى ريعان شبابه وقد كانت العرب على ما علمت يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد فلو كان هناك سلطان للهوى على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم لاتخذ من الزوجات من شاء وهو فى مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية لاشرع يحول بينه وبين بغيته ولا عادة تمنعه مراعاتها من قضاء مآربه لاسيماوقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه وجميل خصاله

بعد أن ماتت خديجة ببضعة أشهر تزوج النبي صلى الله عليه وسلم سودة وكانت أيما مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بنى عمها وأقاربها فما أجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت فقد مات عنها زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنفهم فكان تزوج النبي بها حماية لها أن تصل اليها يد الاذى كما كان ذلك اكبر سلوان لها على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ففقد النبي بموته رجلا كان يناضل عنه ويدفع عنه أعداءه مااستطاع فأخذ الامر اذذاك يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى أن يوثق الرباط بينه وبين قريش فعقد على عائشة وهى اذذاك بنت سبع فان أباها الصديق رضى الله عنه كان مقدرا وجيها فى قريش واسع المال عزيز الجانب يدلك على ذلك مسارعة

النبي صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع انها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين فلم تكن وقت ذاك مطمعا لقضاء شيء من المآرب الشهوية حتى يطمح اليها نظر النبي أو غيره

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بام حبيبة بنت أبي سفيان وكانت ببلاد الحبشة فى الهجرة الثانية مات عنها زوجها هناك وما هو الا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى أنه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها .

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بنى أمية من العداء كما يعلم انه قد كان أبو سفيان ألدّ بنى أمية عداوة لرسول الله وللمسلمين فانه لم يدخل فى الاسلام الا بعد أن نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب تكون له فى الجملة وسيلة الى حمايهم على تقليل الاذى عنه كما أنه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ففى عدم حمايتها ووقايتها وقد مات زوجها تعريض لها الى مقاساة المصاعب والاهوال وانما اختارها النبي لنفسه لمكانتها فى قومها فلو انها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم

كانت الاسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر فى شيء على انهن قلما أعتقن فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى

أن يصنعوا بما فى أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة وأن يجعلن سيدات البيوت فمن ذلك تزوجه بجويرية قالت عائشة رضى الله عنها أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما فوقعت جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار فى سهم ثابت بن قيس فجاءت الى الرسول فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحرث سيد قومه وقد أصابنى من الامر ما قد علمت وقد كاتبنى ثابت على تسع أواق فأعنى على فكاكى فقال أو خير من ذلك فقالت ماهو فقال أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم يا رسول الله فقال رسول الله قد فعلت وخرج الخبر الى الناس فقالوا أصهار رسول الله يسترقون فأعتقوا ما كان فى أيديهم من سبى بنى المصطلق فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها فانظر الى ما قصد الرسول عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حيي وكانت من أشرف بيوت يهود ثم صارت سبيا بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه وسلم من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفية على النبي صلى الله عيه وسلم قال لها لم يزل أبوك من أشد يهود لى عداوة حتى قتله الله فقالت يا رسول الله ان الله يقول فى كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت

اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحق بقومك فقالت يا رسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت الى رحلك ومالى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومى قال فأمسكها رسول الله لنفسه وقد رضيته بعلا مع انه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق

هذا واعلم ان أمر الثأر فى الجاهلية معروف وقد حاول كثير من الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ونسخ تلك العادة القبيحة فلم يفلحوا لما ان ذلك كان أمرا راسخا فى نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء حتى أتى النبي فجعل من عقود انكحته ما ربط كثيرا من القبائل بعضها الى بعض فبذا قرب ما بينها وأزال كثيرا من احقادها وأطفأ سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن حتى قلت فى أيامه صلى الله عليه وسلم الغارات وكاد يتناسى أمر الترات . هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد أن نذكر كلمة فى تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب امرأة مولاه زيد

قال (١) الاستاذ الحكيم ان زينب كانت بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها الاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها وابناء أخيها وعد اباؤها هذا عصيانا ولا زال كذلك حتى نزل في شأنها آية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا)

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شىء من محاسنها الظاهرة فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة الغريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العتق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا فكيف نظن أو نتوهم ان النبي الذى يقول الله له (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده

ان النبي لم يبال باباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤن المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين أن يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين لولا ان النبي يجد من نفسه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم الهى ذلك ان التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع

الاحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) ثم قال (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) فبين الله أن ليس للمتبنى الا حق المولى والاخ فى الدين

وكان من عادة المصطفى أن يبادر فى كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالا صالحا تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب اذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الامر بنفسه فى أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل فبعد أن صارت زينب الى زيد لم يلن اباؤها الاول ولم يسس قيادها بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها اكرم منه عرقا وأصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فشكا ذلك الى النبي غير مرة وهو يقول له (أمسك عليك زوجك واتق الله) الا انه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة كما قال تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا) وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقد قالت العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه

قال أبو بكر بن العربى فأما قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت

في قلبه فباطل فانه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن ثمة حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن اه ملخصا

وهكذا كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فى جميع تزوجاته فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتياً لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعفه عن احتماله لولا أن جعله الله من الصابرين هذا كله على فرض أن انكحة النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على فى كتابه سر الاسلام (The Spirit of Aslpm) فلا حاجة الى التماس شيء من تلك الاسباب قال الامير على ان ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ثم ان الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبي أن يتزوج على من عنده كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجا أخريات فقال (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك) أى الا من سبق لك التزوج بهن

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من احداث هذا الزمان قالوا لم جاز

تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج

فاعلم ان ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الانساب فيقع اللبس فى فى نسبة النسل ولا يخفى ان ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الاحكام الدنيوية كالنفقة والارث وغيرهما

وهنا مسألة أخرى وهو انه لِمَ جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس فان المسلمة في يد الكتابى لا تأمن أن تفتتن فى دينها فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره لا سيما من له عليه سلطان كزوجته والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في العصر الحاضر يرى جلياً وجه ما قلناه ومن هنا يعلم ان المرأة لم تبخس شيئاً مما منحه الرجل

الطلاق

مما عد وصمة فى الاسلام اباحة الطلاق ولذا ينبغى لنا أن نأتى ببيان ما سيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه فنقول

اعلم ان الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة أما حيث لا ضرورة فسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله كما ان المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين فمنهم من قال انه نهى كراهة ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ويؤيد ذلك انه اضرار وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه فى

قوله لا ضرر ولا ضرار ولقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب مع انها كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب قال ابن عابدين وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر أى الحرمة. والاباحة للحاجة الى الخلاص فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص الايذاء بها وبأهلها وأولادها ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ولذا قال تعالى فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أى لا تطلبوا الفراق اه

أما غير المسلمين فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا كالامة الانكليزية فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ثم وجدوا ان هناك أسباباً أخرى يتحتم معها الطلاق ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ولا بد لجميعهم أن يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الاسباب

نعم ان الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم وقصار النظر من الناس يرون ان الاول أعدل لان فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ولكن دين

الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعاً وأبعد مرمى فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ذلك ان فى تعليق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب وتشوه سمعته فى العالم لا سيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى الشوارع والازقة والدكاكين والبيوت والمصانع وتنتقل من أرض الى أخرى ومن يد الى غيرها مشحونة بتفاصيل ما يعرض على المحاكم من هذه القضايا آتية على ما قل منها وما جل فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة مابقى من العمر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الانكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك الجب والعنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها أما غير هذه الاسباب مما قد يزول أولا كبير خطر فى بقائه فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه فما أجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيرا من النقائص رجاء ان تزول من قبل أن يظهر عليها أحد وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب هذا واعلم ان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا وغاية ما ورد فى الانجيل ان من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان وهذا لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا

واعلم ان الطلاق فى الاسلام كما هو معلوم حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة كما تقدم أن تشترط فى العقد أن تملك ذلك كما عليه الحنفية فاذا لم تشترط ذلك هى أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ولكن مع ذلك لا يجوز له أن يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا كما تقدم

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ولا العكس الا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها ولا بينة له فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ثم يفرق القاضى بينهما والسبب فى ذلك ن هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث ما يستتبعه من الاحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون من الاولاد ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه

فما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر فى جميع ما سردناه عليك هنا الا على مقتضى أصل الفطرة فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ثم لم يبخسهن شيئاً كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق ولكن مقرونا بما وضعه وقرره من الشروط ولكن ـ لو أنصف الناس لاستراح القاضى ـ حارب المسلمون دينهم وما شرط لهم فكان أكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرا فى جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها وكذا بين الرومانيين فلقد اعتبر قانون (الموائدالاثنتى عشرة) الطلاق جائزا اما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من انهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم (روما) فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر فكانت عند الرجل كالرقيق كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيرا من شأن المرأة وأنصفوها اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الاشياء

يقول الامير على ان المعتزلة لايجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعى العادل فلا بدأن يمتحن الاسباب بلا تحيز فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا . ومن هنا يظهر ان من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة

واعلم ان من اكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته فى الطلقة الاولى والثانية لانه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز

الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأى ضعيف العزم ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم واذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) أيقول الله ان يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما

وتفهم قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها وقال وجعل بينكم مودة ورحمة ولم يقل بغضا وقسوة وقوله تعالى (أمسك عليك زوجك) أمر النبي عليه السلام زيداً بأن يمسك زوجته فلا يطلقها مع انها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته وقال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى فلا تطلقوهن ومن هنا استنتج ان الاصل فى الطلاق التحريم الا لسبب كما تقدم لنا

خاتمة

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» «وأن ليس للانسان الا ما سعى» وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا

لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترما تصطدم به أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان في عقائد الامم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة »

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على ان السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لمعقول على عقول ولا لاذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها في الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند مااختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)